وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل الخامس

كانت "جورجيت" الوحيدة في المصح التي ما تزال تنعم بحنان الأمومة.. فهي وحيدة والديها ولم تقو والدتها على فراقها، فجاءت معها واستأجرت لنفسها غرفـة في قرية "بحنّس".. وكانت تزورها كل يوم محملة بأصـناف الطعـام والفاكهـة، وتنهال عليها لثما، وتسألها عن حرارتها، ويبلغ بها الحزن مبلغه حين تجد فتاتها لا تفارقها الحمى يوما إلاّ لتعود.. ولا تشتهي وتزدرد طعامها كأنما هي تغـب دواء مريرا، وكانت النصائح تنهال على الفتاة دون جدوى.. ولم تكن الأم تبارح سرير ابنتها إلا حين يدقّ جرس الراحة.. تجلس قربها وتلثمها وتمسح على شعرها.. ولم تكن تسمح لها بترك فراشها إلاّ في أيام الآحاد لتذهب إلى الكنيسة.. فتهيئ الفتـاة نفسها في الليلة السابقة، وتلفّ شعرها الطويل الأشقر السابل بالورق.. وحين تفرده في الصباح يستلقي على كتفيها نهرا ذهبيا متموجا.. وكانت تبدو ملكة في أي ثوب ترتديه، رقيقة هفهافة كزيزفونة تداعبها الريح.. ولقد كان والداها يعدانها لتكـون زوجة كبير في الدولة، واهتما أن تتقن فتاتهما اللغات الأجنبية.. ولم يهملا شـيئا سوى أمر صحتها، وأمر تعليمها لغتها العربية..

وصلتها رسالة من والدها بالعربية فتعذر عليها فك كلماتها، ورجت سلمى أن تقرأها لها.. فقرأت سلمى وعينا الأم والبنت عالقتان بها..

- إنك يا جورجيت تريدين "روب دي شامبر" وتقولين أن كل الفتيات في المصح يرتدين الأرواب في نزهاتهن، وأنك تخجلين من روبك القديم.. كم كان بـودي أن أجيب رغبتك يا صغيرتي المحبوبة، ولكنني أقسم لك أنني غارق في الدين، ولست أستبقي معي إلا ما يبقي على حياتي، وأرسل لك ولوالدتك بكل ما معي.. ما أنا إلاّ محام مغمور يشق طريق الحياة بصعوبة قاسية.. فلا تبالي يا صـغيرتي الحبيبـة بمظاهر الثراء.. إن والدك نفسه قد اهترأت أكمام قميصه وياقتـه، ولا يـستطيع استبداله بآخر جديد..

كوني واقعية يا ابنتي ولا تكرري أخطاء الماضي.. لقـد كـان همـك أنـت ووالدتك أن ترتديا الثياب الغالية على حساب غذائك وصحتك..

كانت جورجيت تعبث بملاءة السرير بعصبية ظاهرة وفجأة انفجرت بالبكاء..

- كفى كفى!.. لا أريد أن أسمع.. إنه لا يريد أن يشتري لي روبا.. إنه يريد أن يبهدلني بهذا الثوب القديم!..

وأخذتها نوبة من البكاء فلا هي تصغي لوالدتها ولا هي تكفّ.. وأخذت فـي نهر أمها المسكينة حين سألتها ما حاجتها إلى الروب وهي لا تخرج إلى النزهات كثيرا.. فانسحبت سلمى من الغرفة حاملة كتابها إلى الحرش الـصغير، وجلـست تمتّع ناظريها بالربيع وقد افتر ثغره عن بسمة حلوة.. فـالزهور البريـة زاخـرة الألوان ترقص في كل مكان.. والشمس عند الضحى تبعث الدفء في الحنايا.. ولم تلبث أن سمعت صوت أم جورجيت تناديها..

وجلست الأم قربها على الحشائش، وهي تصعد زفرة حرى وصوتها يتهـدج بالبكاء:

- ستميتني هذه الفتاة غما وحزنا.. ماذا نفعل لها؟.. أهذا جزاؤنا منها؟.. يعلم الله أنني أتعذب عذابا لم يذقه بشر قلقا عليها.. هجرت بيتي، هجرت والـدها لأجلهـا وهي لا تبالي بنفسها.. لقد خسرت الآن كل ما كسبته في شهر بسبب شيء تافه لا يستحق دمعة من عينيها.. هذه يولا قد شفيت.. لقد كانت حالتها أسوأ مـن حالـة جورجيت ولا أم قربها تتيح لها فرص الشفاء.. أفلا يتفطر قلبي حزنا على حـال ابنتي؟..

ولم تنبس سلمى ببنت شفة.. كانت تعلم أن مغالاة الأم في العطف على فتاتها قـد حرم الفتاة الإعتماد على نفسها، وأضعف إرادتها، وجعلها تعتبر أمها سجانة لها.. فبدا تمردها بمظاهر شتّى حال دون إثارة حوافز الشفاء عندها..

لقد نصح الطبيب يوما أم جورجيت أن تترك ابنتها وشأنها وتعود إلى بيتها.. فأبت أمومتها أن تصغي للنصيحة، ولكنها أخذت منذ ذلك الحـين تهـدد ابنتهـا جورجيت بالسفر كلما حزبها أمر.. فلا تلبث الأم وابنتها أن تتصافيا وتلثم إحداهما الأخرى بحنان..

كان يتردد على الغرفة شاب يدعى فريد للإستماع إلى الأخبار، وهو راع لأبقـار المصح وتفوح منه رائحتها، عضلي البنية يميل إلى القصر، وله شـعر منفـوش دائما..

ولقد كان الشاب مريضا منذ سنوات، ولكنه شفي وأخـذ يمـارس الرياضـة العنيفة حتى غدا مصارعا.. وكثيرا ما ذهب المرضى لرؤيته يصارع دب المصح "زيكو" في فجوة قرب قسم الرجال..

كان فريد متزوجا واحدة من ممرضات المصح تدعى نجيبة، وهـي امـرأة عارية من الجمال تكبره كثيرا ولم تنجب له أولادا.. وكانت تعقد ما بين حاجبيهـا على الدوام، ولها لسان سليط يخشاه فريد لأنه مسالم نفسيا ويكره العراك..

كان الاثنان يعيشان في كره وفي جحيم، ومع ذلك جمع بينهما الدين برباط لا ينفصم.. لقد شكا مأساته لكل مريضات المصح، وقالت له سلمى يوما بعصبية:

- لم اخترتها إذن؟..ألا تظن أن الذنب ذنبك منذ البداية؟..

فصاح محتدا:

- ذنبي!.. إنه الفقر.. لعن الله دين الفقر.. نزلت إلى بيروت إثر شفائي ورحـت أبحث عن عمل دون جدوى.. جعت وتشردت ونمت على الأرصفة، واضطررت أخيرا أن أعود إلى عملي السابق حمالا.. تصوري!.. مريض ناقه يحتـاج إلـى الغذاء والراحة، يحمل الأثقال في وهج الشمس وينـوء تحتهـا جـسمه الـواهن المتصبب بالعرق.. لم يحتمل صدري ذلك الإرهاق ونزفت، فعدت إلـى المـصح ولم ألبث أن تماثلت للشفاء.. وكنت ذات يوم مهموما أفكر بالمـستقبل الرهيـب، بالبطالة والتشرد والجوع ونوم الأرصفة أو حمل الأثقال.. كانت صـورة الفنـاء والموت تلاحق شرود تفكيري، وخيل إلي أن بيروت في جوها المحموم القاسـي ستخنق أنفاسي.. فجاءتني نجيبة وعرضت علي أن تسعى لي عند رئيسة الراهبات لتجد لي عملا في المصح على شرط أن أتزوجها.. شعرت لأول وهلة بالدهـشة والاشمئزاز، ولكنني رضيت بعد ذلك.. لقد اقترنت نجيبة بالهواء النقـي والغـذاء الوافر، واقترنت بالحياة بالنسبة إلي فاقترنت بها..

- أما كان بوسع "مامير" أن تجد لك هـذا العمـل دون أن تورطـك بـزواج لا تبتغيه؟..

- ما كانت مامير بحاجة إلى عملي، وهناك كثيرون في مثل وضـعي، ولكنهـا كانت بحاجة إلى نجيبة، ولا تستغني عنها بعد أن أمضت فـي خدمـة المرضـى عشرين عاما..

كان فريد حزبيا متعصبا لا يفتأ يدعو للاشتراكية.. وكان في نظرتـه للحيـاة حكمة بالرغم من أميته.. فهو يقيس مفاهيمها على ضـوء مـصلحته ويستـشهد بالأحداث التي مرت به، فيأتي قياسه بسيطا منطقيا منسجما مع الواقع.. وهو عنيد في إيمانه بقدر جهله بالمبدأ الذي يدعو إليه.. إنه مطمئن أن الإنسانية ستمر بعهـد ذهبي تستتب فيه الأمور، ويسود السلام، وتتلاشى خلافات الدين، ويمحـي فيـه البؤس والشقاء، وتنطلق إمكانيات الإنسان، ويعم العالم الرخاء والطمأنينـة.. لقـد سأل سلمى ذات يوم عن الكتاب الذي تقرأ، ولما علم بأنه من مؤلفات "لينين" تنهد بحسرة وقال:

- ليتني كنت أقرأ.. ما أروع أن يستطيع الإنسان أن يفهم رموز الكتب، ويـزود عقله بحكمة أمثال هؤلاء الرجال الشرفاء.. ماذا يقول الكتاب؟..

- أشياء كثيرة، ولست أفهمها كلّها ولكنني سأستمر في القراءة..

غير أن سلمى لم يتح لها أن تستمر.. لقد فاجأها الطبيب تقرأ فـي الكتـاب.. وقف ذلك العملاق الطفلي الملامح وهو يتصفح الكتاب، ويتبادل والمعاون النظـر ويدردشان بالإفرنسية..

لقد رأتهما سلمى على الطريق في الخارج والهواء يطاير وشاحيهما الكحليين، ويكشف عن ثيابهما البيض.. ولكنها كانت غارقة في التفكير، غائبة عن الوجـود الخارجي، فلم تنتبه إلاّ حين وقف الطبيب أمامها يقلّب الكتاب.. فاضطرب قلبهـا خشية أن تسيء إلى أحمد، ولكنها رأت من الحكمة أن تتظاهر بالهدوء واللامبالاة، وبدا لها أن إقدام قد امتقع وجهها وبان القلق في عينيها، حـين قطـب الطبيـب العملاق ما بين الحاجبين وقال:

- من أين حصلت على هذا الكتاب؟..

وابتسمت في دهشة:

- من مكتبتكم بالطبع.. أعجبني لأنه ضخم، ولكني مللتـه لأنـه صـعب علـى الإدراك.

فسري عنه وقال:

- هذه أفكار خطرة شريرة، لا يجب أن تقرأها فتاة صغيرة مثلك..

وأجابته بابتسامة معنوية:

- لا تخشى علي يا دكتور.. إنني أومن بقدرتي على التمييز!..

وابتسم المعاون وأشاح بوجهه، بينما تجعد وجه الطبيب بتقطيبة جديدة حـين دخلت الراهبة في تلك اللحظة وجابهها بعنف:

- يجب أن تنتبهي لما يقرأه المرضى، وتحرقي كل ما من شأنه أن يسيء إلـى أفكارهم وأخلاقهم.. خذي.. هذا كتاب للحرق!..

فتأبطت الراهبة الكتاب بعد أن حدجت سلمى بنظرة غاضبة، وخرجوا جميعـا فأصدرت إقدام تنهدة ارتياح وهي تنظر إلى سلمى بابتسام..

أما الراهبة فلقد أصبحت حريصة جدا على ما تقرأه سلمى ففاجأتها يومـا تقـرأ رواية "راسبوتين".. قلّبت الصفحات واستقر نظرها على كلمة "راهب" فابتـسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- هذه قصص مفيدة.. أكثري من قراءتها يا ابنتي..

ولم تكد تخرج حتى رنّت ضحكة كانت مكتومة في صدر سلمى وإقدام معا..

* * *